واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٨ – سرية نخلة – في رجب سنة ٢هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين ، كل اثنين يعتقبان على بعير .

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين ، فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها عير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك ، وأنه لا يستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا في طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسيرين في الإسلام .

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف التصرف في العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(٢:٢١٧).

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين ، وأدى دية المقتول إلى أوليائه[1] .

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال ، إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري ، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أوتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص ، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية ، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة – كما فعلت جهينة وبنو ضمرة – ازدادوا حقداً وغيظاً ، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل ، من إبادة المسلمين في عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش ، في شهر شعبان سنة ٢هـ ، وأنزل في ذلك آيات بينات ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٨٣/٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ٥٦١/١ إلى ٦٠٥ ، ورحمة للعالمين ١١٥/١ ، ١١٦ ، ٢١٥/٢ ، ٢١٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفي تعيين عدد الخارجين فيها – واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصورفوري .

أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢ : ١٩٠ : ١٩١ : ١٩٢ : ١٩٣) .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر ، يعلمهم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٤٧ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)[1] .

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ الآية (٤٧ : ٢٠) .

وإيجاب القتال والحض عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارىء ، فكيف بالرب العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضي عراكاً دامياً بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم ، آلمتهم ، وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر .

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي ، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائياً ، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم ، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى ، والإثخان في الأرض ، حتى تضع الحرب أوزارها ، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً . ولكن ترك كل ذلك مستوراً ؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله .

وفي هذه الأيام – في شعبان ٢هـ/فبراير ٦٢٤م – أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت

---

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقاً مدللاً أن سورة محمد نزلت قبل بدر ، راجع تفهم القرآن ١١/٥ ، ١٢ .

المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد ، لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخليصها يوماً ما .

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة .

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيراً لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ، ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر .

كانت العير مركبة من ثروات طائلة من أهل مكة ، ألف بعير موقرة بالأموال ، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة – بدل العير – هذا الاصطدام العنيف في بدر ، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (٣١٣ ، أو ٣١٤ ، ٣١٧ رجلاً) ، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين ، و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج . ولم

يحتفلوا لهذا الخروج احتفالاً بليغاً ، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي ، وكان معهم سبعون بعيراً ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله ﷺ وعليٌّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذز ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري ، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

١ – كتيبة المهاجرين ، وأعطى علمها علي بن أبي طالب .

٢ – كتيبة الأنصار ، وأعطى علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو – وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش كما أسلفنا – وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة ، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش .

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر:

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها ، ترك طريق مكة بيسار ، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدراً) ، فسلك في ناحية منها ، حتى جزع وادياً يقال له رحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهنالك بعث بَسْبَسَ بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير .

النذير في مكة:

وأما خبر العير فإن أبا سفيان – وهو المسؤول عنها – كان على غاية من الحيطة والحذر ، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من

الركبان ، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدا – ﷺ – قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة ، مستصرخاً لقريش بالنفير إلى عيرهم ، ليمنعوه من محمد – ﷺ – وأصحابه ، وخرج ضمضم سريعاً حتى أتى مكة ، فصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث .

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفز الناس سراعاً ، وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا ، والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين ، إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبوا في الخروج ، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب ، فإنه عوض عنه رجلاً كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي ، فلم يخرج منهم أحد .

قوام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام ، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش ، فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل .

مشكلة قبائل بني بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة والحرب ، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف ، فيكونوا بين نارين ، فكاد ذلك يثنيهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي – سيد بني كنانة – فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : ﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ – « بحدهم وحديدهم ، يحادون الله ويحادون رسوله » ، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ ، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه ، لاجتراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في تجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان ، ثم قديد ، ثم الجحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .

العير تفلت:

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي ، ولكنه لم يزل حذراً متيقظاً ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم عيره ، حتى لقي مجدي بن عمرو ، وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى عيره سريعاً ، وضرب وجهها محولاً اتجاهها نحو الساحل غرباً ، تاركاً الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة .

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلاً : والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة

– وكان حليفاً لهم ورئيساً عليهم في هذا النفير – فلم يشهد بدراً زهري واحد ، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً .

وأرادت بنو هاشم الرجوع ، فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة – وهو يقصد بدرا – فواصل سيره حتى نزل قريباً من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامي :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ – وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران – خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام ، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة ، والجراءة ، والجسارة ، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيماً لمكانة قريش العسكرية ، وامتداداً لسلطانها السياسي ، وإضعافاً لكلمة المسلمين وتوهيناً لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة .

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين في عقر دارهم . كلا ، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشاري :

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجيء عقد رسول الله ﷺ مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامي ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ وأما قادة الجيش ؛ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ،

ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية في الجيش ، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا عليَّ أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران ، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية ، وترك الحنان بيمين – وهو كثيب عظيم الأصل – ثم نزل قريباً من بدر .

الرسول - ﷺ - يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه – سأل عن الجيشين زيادة في التكتم – ولكن الشيخ قال : لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش المدينة – وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا – للمكان الذي به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله ﷺ نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقي الشيخ يتفوه ، ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ، ليبحث عن أخبار العدو ، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر ، فوجدوا غلامين يسقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ ، وهو في الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبي سفيان – لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة – فضربوهما موجعاً ، حتى اضطر الغلامان أن يقولا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلاً : أخبراني عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف في رجال سمياهم .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس ، فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

نزول المطر:

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً ، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ، ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم – قريش – فننزله ونغوِّر – أي نخرب – ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش ، حتى أتى أقرب ماء من العدو ، فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض ، وغوَّروا ما عداها من القلب .

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقراً لقيادته ، استعداداً للطوارىء ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر ، حيث قال : « يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك » .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير ، وبنى المسلمون عريشاً على تلك مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه[1] ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله[2] ، ثم بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هنالك ، وبات المسلمون ليلهم هادىء الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخذوا من الراحة قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (٨: ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

---

(١) انظر جامع الترمذي أبواب الجهاد ، باب ما جاء في الصف والتعبئة ١/٢٠١ .

(٢) رُواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصابيح ٢/٥٤٣ .

الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش ؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها ، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر ، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ ، فقال : دعوهم ، فما شرب أحد منهم يؤمئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ، وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد في اليمين قال : لا والذي نجاني من يوم بدر ، فلما اطمأنت قريش بعث عمير بن وهب الجمحي ؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً ، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادكم ، فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم .

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل – المصمم على المعركة – تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي – المقتول في سرية نخلة – فقال عتبة : قد فعلت ، أنت ضامن عليَّ بذلك ، إنما هو حليفي فعليَّ عقله ديته وما أصيب من ماله .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأت ابن الحنظلية – أبا جهل ، والحنظلية أمه – فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

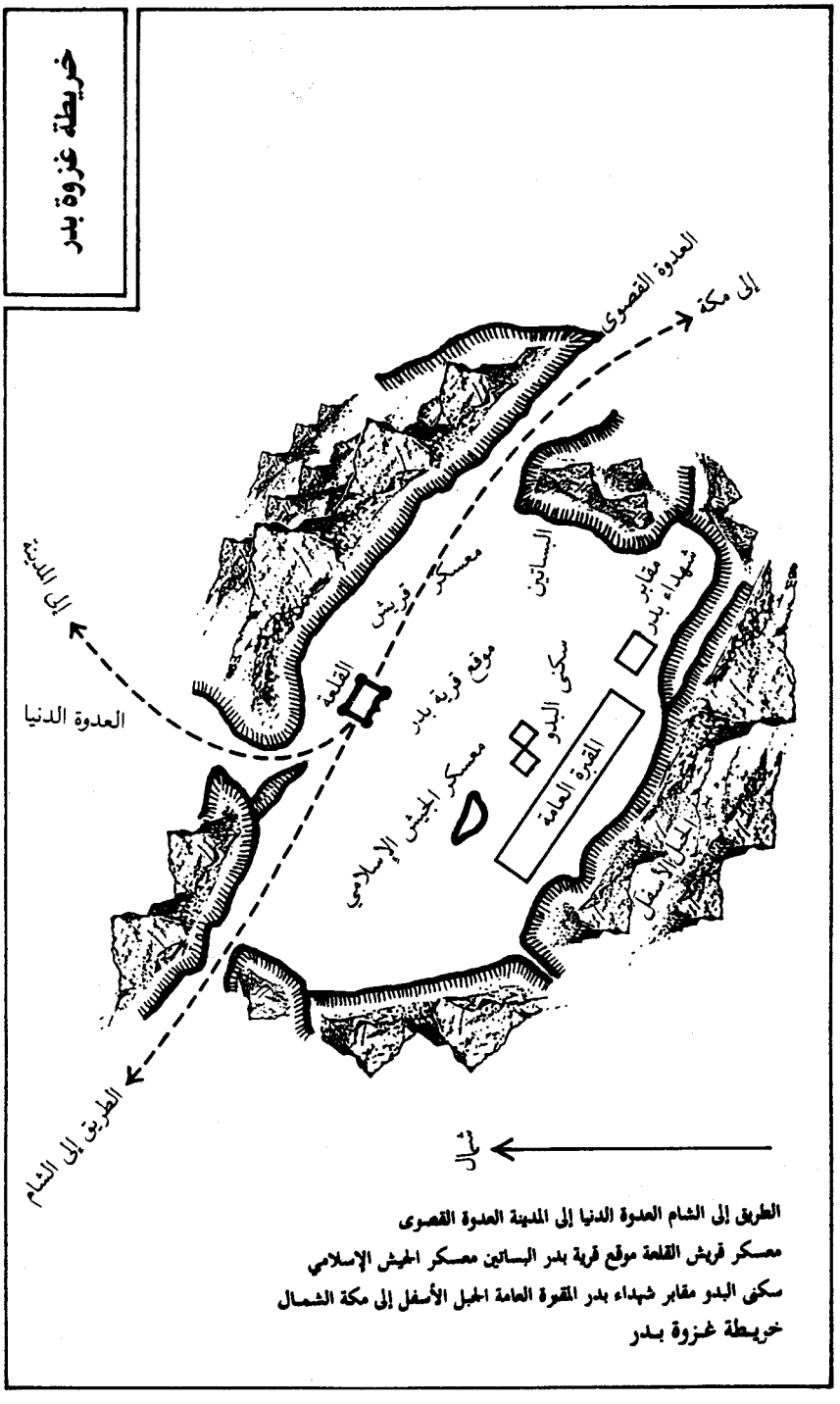

الطريق إلى الشام العدوة الدنيا إلى المدينة العدوة القصوى

معسكر قريش القلعة موقع قرية بدر البساتين معسكر الجيش الإسلامي

سكنى البدو مقابر شهداء بدر المقبرة العامة الجبل الأسفل إلى مكة الشمال

خريطة غزوة بدر

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل – وهو يهيئ درعاً له – قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني بكذا وكذا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه – وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر – فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفخ والله سحره » ، قال عتبة : سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة . فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي – أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش – فقال : هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر ، فكشف عن استه ، وصرخ : واعمراه ، واعمراه فحمي القوم ، وحقب أمرهم ، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة ، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشان يتراءان:

ولما طلع المشركون ، وترآى الجمعان قال رسول الله ﷺ : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة » . وقد قال رسول الله ﷺ – ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر – إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان في يده قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح وقال : « استو يا سواد » ، فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني فأقدني ، فكشف عن بطنه ، وقال : « استقد » ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال : « ما حملك على هذا يا سواد » ؟ قال : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر

الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال : « إذا أكثبوكم - يعني كثروكم - فارموهم ، واستبقوا نبلكم[1] ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم[2] » ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحنه الغداة ، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨ : ١٩) .

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق - خرج قائلاً : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة ، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض .

المبارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام ، ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بني عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي » ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة - وكان

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٦٨ .

(٢) سنن أبي داود في سل السيوف عند اللقاء ٢/١٣ .

أسن القوم – عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد[1] ، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم كر علي وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة ، وقد قطعت رجله ؛ فلم يزل صمتاً حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر ، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة .

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ الآية .

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين ، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضباً ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد .

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم ، واستغاثوه ، وأخلصوا له ، وتضرعوا إليه ، تلقوا هجمات المشركين المتوالية ، وهم مرابطون في مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول - ﷺ - يناشد ربه:

وأما رسول الله ﷺ ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك » . حتى إذا حمي الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة ، واحتدم القتال ، وبلغت المعركة قمتها ، قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً » . وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك .

وأوحى الله إلى ملائكته ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبيدة بارز الوليد ، وعلي بارز شيبة ، وحمزة بارز عتبة . مشكاة المصابيح ٣٤٣/٢ .

ٱلرُّعْبَ ﴾ ، وأوحى إلى رسوله ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ - أي أنهم ردف لكم ، أو يردف بعضهم بعضاً أرسالاً ، لا يأتون دفعة واحدة .

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع » (أي الغبار) . وفي رواية محمد بن إسحاق : قال رسول الله ﷺ : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش ، وهو يثب في الدرع ، ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (٥٤ : ٤٥) ، ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً وقال : « شاهت الوجوه » ، ورمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (٨ : ١٧) .

الهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : « شدوا » ، وحرضهم على القتال ، قائلاً : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وقال وهو يحضهم على القتال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » ، (وحينئذ) قال العمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بخ . بخ » ؟ قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل[1] .

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ! قال غمسه يده في العدو حاسراً ، فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

---

(١) رواه مسلم ١٣٩/٢ ، مشكاة المصابيح ٣٣١/٢ .

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وفتر حماسه ، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم – وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه – قاموا بهجوم كاسح مرير ، فجعلوا يقلبون الصفوف ، ويقطعون الأعناق ، وزادهم نشاطاً وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب في الدرع ، ويقول في جزم وصراحة ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، فقاتل المسلمون أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه ، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربها ، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة[1] » . وقال أبو داود المازني : إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أنه قد قتله غيري . وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً ، فقال العباس : إن هذا والله ما أسرني ، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصاري : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم » .

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس – وكان قد جاء في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي كما ذكرنا ، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت – فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وتشبث به الحارث بن هشام – وهو يظنه سراقة – فوكز في صدر الحارث فألقاه ، ثم خرج هارباً ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر .

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين ، وجعلت تتهدم أمام حملات

---

(١) روى مثل ذلك مسلم ٢/٩٣ وغيره .

المسلمين العنيفة ، واقتربت المعركة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد ، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة .

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد في وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم في شراسة ومكابرة : لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلاً منكم قتل منهم رجلاً ، ولكن خذوهم أخذاً ، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة ، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين . نعم بقي حوله عصابة من المشركين ، ضربت حوله سياجاً من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحينئذ ظهر هذا الطاغية ، ورآه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين .

مصرع أبي جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم ، أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، فما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، قال : والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزني الآخر ، فقال لي مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه ، قال : فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « أيكما قتله » ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : « هل مسحتما سيفيكما » ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين ،

فقال : « كلاكما قتله » ، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء[1] .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة – والحرجة : الشجر الملتف ، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة – وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه ، قال :فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه – أطارتها – بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها . قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها[2] ثم مر بأبي جهل – وهو عقير – معوذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبته ، فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ فتفرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق ، فوضع رجله على عنقه ، وأخذ لحيته ليحتز رأسه ، وقال : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أعمد من رجل قتلتموه[3] ؟ أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال : فلو غير أكار قتلني ، ثم قال : أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله ، ثم قال لابن مسعود – وكان قد وضع رجله على عنقه – لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم ، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال : « آلله الذي لا إله إلا هو » ؟ فرددها ثلاثاً ، ثم قال : « الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق أرنيه » ، فانطلقنا فأريته إياه ، فقال : « هذا فرعون هذه الأمة » .

---

(١) صحيح البخاري ١/٤٤٤ ، ٢/٥٦٨ ، مشكاة المصابيح ٢/٣٥٢ ، وإنما خص بالسلب واحداً منهما لأن الثاني قتل شهيداً في نفس المعركة .

(٢) بقي معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) أي ليس علي عار فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه .

من روائع الإيمان في هذه المعركة

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث – ابن عفراء – وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة ، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والأخوة بالأخوة ، خالفت بينهما المبادىء ، ففصلت بينهما السيوف ، والتقى المقهور بقاهره ، فشفى منه غيظه .

١ – روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً » ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألحمنه – أو لألجمنه – بالسيف ، فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف » ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيداً .

٢ – وكان النهي عن قتل أبي البختري ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب .

ولكن أبا البختري قتل رغم هذا كله ، وذلك أن المجذر بن زياد البلوي لقيه في المعركة ، ومعه زميل له ، يقاتلان سوياً ، فقال المجذر : يا أبا البختري إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلي ؟ فقال المجذر : لا والله ما نحن بتاركي زميلك ، فقال : والله إذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، ثم اقتتلا ، فاضطر المجذر إلى قتله .

٣ – كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن ، وهو واقف مع ابنه علي بن أمية ، آخذا بيده ، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها ، وهو يحملها ، فلما رآه قال : هل لك فيّ ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التي معك ،

ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة في اللبن ؟ – يريد أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن – فطرح عبد الرحمن الأدراع ، وأخذهما يمشي بهما ، قال عبد الرحمن : قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره ؟ قلت : ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي ، وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة ، فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قلت : أي بلال ، أسيري قال : لا نجوت إن نجا . قلت : أتسمع يا ابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة ، وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت انج بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ما أغني عنك شيئاً . قال فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالاً ، ذهبت أدراعي ، وفجعني بأسيري .

وفي زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية : ابرك ، فبرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف[1] .

٤ – وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة .

٥ – ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن – وهو يومئذ مع المشركين – فقال : أين مالي يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب ... وصارم يقتل ضلال الشيب[2]

٦ – ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحاً سيفه ، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله .

---

(١) زاد المعاد ٢/٨٩ .

(٢) الشكة : السلاح . واليعبوب : الفرس الكثير الجري .

كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال .

٧ ـ وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب ، فقال : « قاتل بهذا يا عكاشة » ، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه ، فعاد سيفاً في يده طويل القامة ، شديد المتن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل في حروب الردة وهو عنده .

٨ ـ وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير ، الذي خاض المعركة ضد المسلمين ، مر به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال : مصعب للأنصاري : شد يديك به ، فإن أمه ذات متاع ، لعلها تفديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه ـ أي الأنصاري ـ أخي دونك .

٩ ـ ولما أمر بإلقاء جيف المشركين في القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : « يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء » ؟ فقال : لا والله ، يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال له خيراً .

قتلى الفريقين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، ويفتح مبين بالنسبة للمسلمين ، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون ، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى ، فقال : « بئس العشيرة

كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وخذلتموني ونصرني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس » ، ثم أمر بهم ، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، « يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وفي رواية « ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون »[1] .

مكة تتلقى أنباء الهزيمة:

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة ، تبعثروا في الوديان والشعاب ، واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم ابن هشام ، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عني ، قالوا : ما فعل صفوان بن أمية قال : هاهو ذا جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وقال أبو رافع – مولى رسول الله ﷺ – : كنت غلاماً للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً ، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح ، أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي ، وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٣٤٥/٢ .

بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة[1] ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إلي ، فعندك لعمري الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تُليق[2] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، فثاورته ، فاحتملني فضرب بي الأرض ، ثم برك علي يضربني ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته ، فضربته به ضربة فعلت في رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهي قرحة تتشاءم بها العرب ، فتركه بنوه ، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود في حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه) .

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثراً سيئاً جداً ، حتى منعوا النياحة على القتلى ، لئلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يحب أن يبكي عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلاً صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة – ابنه – فإن جوفي قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته ، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال :

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد

(١) طنب الحجرة : طرفها .
(٢) لا تبقي شيئاً .

وبكـي إن بكيت على عقيـل — وبكـي حـارثـاً أسـد الأسـود
وبكيهـم ، ولا تَسـمـي جميعـاً — ومـا لأبي حكيمـة من نـديـد
ألا قـد سـاد بعـدهـم رجـال — ولولا يـوم بـدر لم يسـودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة ، ليعجل لهم البشرى ، أرسل عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكباً القصواء – ناقة رسول الله ﷺ – قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب ، وجاء فلاّ[1] .

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً ، وتقدم رؤوس المسلمين – الذين كانوا بالمدينة – إلى طريق بدر ؛ ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين .

قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان .

الجيش النبوي يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فشهدت معه بدراً فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه

(١) فلاً : منهزماً .

ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٨ : ١) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[1] .

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين ، وجعل عليه عبد الله بن كعب ، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء ، بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث – وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أكابر مجرمي قريش ، ومن أشد الناس كيداً للإسلام ، وإيذاء لرسول الله ﷺ – فضرب عنقه علي بن أبي طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة ، وهو الذي خنقه بردائه ، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر رضي الله عنه ، فلما أمر بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار[2] . قتله عاصم بن ثابت الأنصاري ، ويقال علي بن أبي طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث وجهة الحرب ، فلم يكونا من الأسارى فحسب ، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث .

وفود التهنئة :

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين – الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٢٣ ، ٣٢٤ ، والحاكم ٢/٣٢٦ .

(٢) روى ذلك أصحاب الصحاح ، انظر سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبود ٣/١٢ .

سمعوا بشارة الفتح من الرسولين – يهنئونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا ابن أخي أولئك الملأ » .

وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظفرك ، وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدواً ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : « صدقت » .

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفراً منصوراً ، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيراً ، فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملاً بوصية رسول الله ﷺ .

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسارى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان – قريب لعمر – فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم أعداء الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر ، وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : « للذي عرض عليّ أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة – شجرة قريبة –[1] .

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص٣٦ .

وأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٨ : ٦٧ ، ٦٨) .

والكتاب الذي سبق من الله هو قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (٤٧ : ٤) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا في الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا أكابر مجرمي الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم ، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت .

واستقر الأمر على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم ، إلى ثلاثة آلاف درهم ، إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء .

ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفي بن أبي رفاعة ، وأبو عزة الجمحي ، وهو الذي قتله أسراً في أحد ، وسيأتي .

ومنّ على ختنه أبي العاص بشرط أن يخلي سبيل زينب ، وكانت قد بعثت في فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب ، فخلاها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، فقال : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها ، فخرجا حتى رجعا بها ، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة .

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مصقعاً ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً ، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب ، احترازاً عن المثلة ، وعن بطش الله يوم القيامة .

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي – إن صح هذا التعبير – على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليق التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولاً – إلى التقصيرات والتقاريظ الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريظ .

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء ، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح وفي المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، وعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقنن لهم مبادىء وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادىء التي يدعو إليها .

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى ؛ تخفيفاً لكثير من الأوزار التي يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين ، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في الأرض .

ومن أحسن المواقع وأروع الصدفات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد

الذي وقع في شوال سنة ٢هـ إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز ، وما أروق منظر تلك الصلاة التي صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلاً :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨ : ٢٦) .

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ، وكانت معركة فاصلة ، أكسبت المسلمين نصراً حاسماً شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون ، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضرباً قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدركان هذان الفريقان يحترقان غيظاً وحنقاً على المسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (٥ : ٨٢) وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظاً من الأوليين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت في سلوكها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التي رآها كفيلة ببلوغ غايته . فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام ، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات ، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة ، وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم ونعلن بأخذ الثأر والنقمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهاراً ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولا بـــد من يـــوم أغـــر محجـــل يطـــول استماعي بعـــده للنـــوادب

وفعلاً ، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد ، والتي كان لها أثر سيء على سمعة المسلمين وهيبتهم .

غزوة بني سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكُدْر[1] . ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاماً يقال له « يسار » فأعتقه .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم[2] .

---

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير في لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بني سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعاد ٢/٩٠ ، ابن هشام ٢/٤٣ ، ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٣٦ .

مؤامرة لاغتيال النبي - ﷺ -

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضباً ، وجعلت مكة تغلي كالمرجل ضد النبي ﷺ ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم ، وهو النبي ﷺ .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر يسير – وكان عمير من شياطين قريش ، ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة – وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إنْ في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال : عليّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب – وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر – فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : فأدخله علي ، فأقبل عمير فلببه بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله ﷺ – وعمر

آخذ بحمالة سيفه في عنقه – قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحاً ، فقال النبي ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف في عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟

قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم تشهد شهادة الحق ، فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير[1] .

غزوة بني قينقاع:

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود . وقد كان حريصاً كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة ، وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين . وهاك مثالاً من ذلك :

(١) ابن هشام ١/٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس – وكان شيخاً (يهودياً) قد عسا[1] عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة – يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم – وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة – والظاهرة : الحرة – السلاح السلاح ، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[2] .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين ، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل ، كانوا يبثون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار ، ثم يكفرون آخره ؛ ليزرعوا بذور الشكوك في

---

(١) عسا الشيخ : كبر .

(٢) ابن هشام ١/٥٥٥ ، – ٥٥٦ .

قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويمتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل[1] .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك ؛ حرصاً على رشدهم ، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصراً مؤزراً في ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب الأقاصي والأداني ، تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر . والعداوة ، وجاهروا بالبغي والأذى .

وكان أعظمهم حقداً وأكبرهم شراً كعب بن الأشرف – وسيأتي ذكره – كما أن أشر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة – في حي باسمهم – وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني ، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم ، فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين ، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم ، جمعهم رسول الله ﷺ ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى ، وحذرهم مغبة البغي والعدوان ، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً

---

(١) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها .

يوم بدر ، وقدم المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع . فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٣ : ١٢ ، ١٣)[1].

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه ، وصبر المسلمون ، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي .

وازداد اليهود – من بني قينقاع – جراءة ، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطراباً ، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

روى ابن هشام عن أبي عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته في سوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها – وهي غافلة – فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله – وكان يهودياً – فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[2] .

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عيل صبر رسول الله ﷺ ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم ، فحاصروهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب – الذي إذا

---

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ١١٥/٣ ، ابن هشام ٥٥٢/١ .

(٢) ابن هشام ٤٧/٢ ، ٤٨ .

أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف في قلوبهم – فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحينئذ قام عبد الله بن أبي سلول بدوره النفاقي ، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفواً ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي – وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج – فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فكرر ابن أبي مقالته ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درعه ، فقال له رسول الله ﷺ : أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : ويحك ، أرسلني . ولكن المنافق مضى على إصراره ، وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ، وتحصدهم في غداة واحدة ؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر .

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق – الذي لم يكن بمضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب – عامله بالمراعاة ، فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاث قسي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة[1] .

غزوة السويق:

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم ، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جناح الظلام ، فأتى حيي بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم – سيد بني النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ، فاستأذن عليه فأذن ، فقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا

(١) زاد المعاد ٢/٧١ ، ٩١ ، ابن هشام ٢/٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

وأحرقوا هناك أسواراً من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتموياتهم يتخففون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر[1] .

غزوة ذي أمر:

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد ، قادها في المحرم سنة ٣ هـ .

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بذي أمر » فأقام هناك صفراً كله – من سنة ٣ هـ – أو قريباً من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولي عليهم الرعب والرهبة ، ثم رجع إلى المدينة[2] .

---

(١) زاد المعاد ٢/٩٠ ، ٩١ ، ابن هشام ٢/٤٤ ، ٤٥ .

(٢) ابن هشام ٢/٤٦ ، زاد المعاد ٢/٩١ ، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربي كانت في هذه الغزوة . والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٢/٥٩٣ .

قتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله ﷺ ، وتظاهراً بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيء – من بني نبهان – وأمه من بني النضير ، وكان غنياً مترفاً معروفاً بجماله في العرب ، شاعراً من شعرائها ، وكان حصنه في شرق جنوب المدينة في خلفيات ديار بني النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صناديد قريش في بدر قال : أحق هذا ؟ هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي ، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين ، يثير بذلك حفائظهم ، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأي الفريقين أهدى سبيلا ؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلا ، وأفضل ، وفي ذلك أنزل الله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (٤ : ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، وأبو نائلة – واسمه سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة – والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن حبر ، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لي أن أقول شيئاً . قال: قل .

فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا .

قال كعب : والله لتملنه .

قال محمد بن مسلمة : فإنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين .

قال كعب : نعم أرهنوني .

قال ابن مسلمة : أي شيء تريد ؟

قال : أرهنوني نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟

قال : فترهنوني أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم ، فيقال : رهن بوسق أو وسقين . هذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأمة ، يعني السلاح .

فواعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعبا فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف ، إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني .

قال كعب : أفعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفي ليلة مقمرة – ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ – اجتمعت هذه المفرزة إلى

رسول الله ﷺ ، فشيعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلي ويناجي ربه .

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته – وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعي إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتموني استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، وزهي كعب بما سمع ، فقال : عندي أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها ، حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئاً ، فأخذ محمد بن سلمة مِغْوَلا فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلاً ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه ، حتى إذا بلغوا بقيع الغرقد كبروا ، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك

يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين يديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذ بعده[1] .

ولما علمت اليهود اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة ، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدي نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق ، فلم يحركوا ساكناً لقتل طاغيتهم ، بل لزموا الهدوء ، وتظاهروا بإيفاء العهود ، واستكانوا ، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبيء فيها .

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ – إلى حين – لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها ، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

* * *

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثمائة مقاتل ، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣هـ إلى أرض يقال لها بحران – وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع – فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حرباً[2] .

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣هـ.

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الوقعة من ابن هشام ٢/٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيح البخاري ١/٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٢/٥٧٧ ، وسنن أبي داود مع عون المعبود ٢/٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢/٩١ .

(٢) ابن هشام ٢/٥٠ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٢/٩١ ، واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشاً ، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم – حتى لم يذكر الأول رأساً – وهو الموجه ، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

وتفصيلها أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام ، فأخذها هم آخر

قال صفوان بن أمية لقريش – وهو الذي انتخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام – : إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف ، وإلى الحبشة في الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع ، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان : تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق – وهي طريق طويلة جداً تخترق نجدا إلى الشام ، وتمر في شرقي المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل – فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان – من بني بكر بن وائل – دليلاً له ، يكون رائده في هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليط بن النعمان – وكان قد أسلم – اجتمع في مجلس شرب – وذلك قبل تحريم الخمر – مع نعيم بن مسعود الأشجعي – ولم يكن أسلم إذ ذاك – فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبي ﷺ يروي له القصة .

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة – على حين غرة – وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له قردة – بالفتح فالسكون – فاستولى عليها كلها ، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة – فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره – وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف ، قسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ[1] .

(١) ابن هشام ٢/٥٠ ، ٥١ ، فقه السيرة ص١٩٠ ، رحمة للعالمين ٢/٢١٩ .

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشاً بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش ، وزادتها هماً وحزناً . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين ، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين ، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو في ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أحد .

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظاً على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف ، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر ، حتى إن قريشاً كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى ؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين ، تشفي غيظها ، وتروي غلة حقدها ، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وأبو سفيان بن حرب ، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطاً وتحمساً لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر ، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً ، فأجابوا لذلك ، فباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ (٨ : ٣٦) .

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة ، وأخذوا لذلك أنواعاً من طريق التحريض ، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر ـ الذي كان قد أسر في بدر فمنَّ عليه رسول الله ﷺ ، وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه

العهد بأن لا يقوم ضده – أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإلا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم ، كما اختاروا شاعراً آخر – مسافع بن عبد مناف الجمحي – لنفس المهمة .

وكان أبو سفيان أشد تأليباً على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائباً لم ينل ما في نفسه ، بل أضاع مقداراً كبيراً من تموياته في هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة – أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير – ما أصاب قريشاً أخيراً في سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها ، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره ، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء ، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح النقليات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس[1] جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد ، يعاونه عكرمة بن أبي جهل ، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار .

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء في القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

---

(١) زاد المعاد ٢/٩٢ وهو المعروف ، وفي فتح الباري مائة فرس ٧/٣٤٦ .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة – التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلو متراً – في ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أُبَيُّ بن كعب ، فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارىء:

وظلت المدينة في حالة استنفار عام ، لا يفارق رجالها السلاح ، حتى وهم في الصلاة ، استعداداً للطوارىء .

وقامت مفرزة من الأنصار – فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة – بحراسة رسول الله ﷺ ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ، خوفاً من أن يؤخذوا على غرة .

وقامت دوريات من المسلمين – لاكتشاف تحركات العدو – تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة – زوج أبي سفيان – بنبش قبر أم رسول الله ﷺ ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادي العقيق ثم انحرف منه إلى ذات اليمين ، حتى نزل قريباً بجبل أحد في مكان يقال له عينين ، في بطن السبخة ، من قناة على

شفير الوادي – الذي يقع شمالي المدينة – فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبراً بعد خبر ، حتى الخبر الأخير عن معسكره ، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى ، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رآها ، قال : إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً يذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأي . ووافقه على هذا الرأي عبد الله بن أبي بن سلول – رأس المنافقين – وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه – لأول مرة – أمام المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه ، ويتعرف المسلمون في أحرج ساعتهم على الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج ، وألحوا عليه في ذلك ، حتى قال قائلهم : يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم .

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ – الذي كان قدأروى فرند سيفه في معركة بدر – فقد قال للنبي ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[1] .

---

(١) السيرة الحلبية ٢/١٤ .

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأي الأغلبية ، واستقر الرأي على الخروج من المدينة ، واللقاء في الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك .

ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي ، ثم دخل بيته ، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجج بسلاحه ، وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع) ، وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعاً على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما شئت ، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته – وهي الدرع – أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه[1] .

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب :

(١) كتيبة المهاجرين ، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري .

(٢) كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى لواءها أسيد بن حضير .

(٣) كتيبةالخزرج من الأنصار ، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر .

وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل ، فيهم مائة دارع وخمسون فارساً[2] ، وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة ، وأذن بالرحيل ، فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين.

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وابن إسحاق .

(٢) قاله ابن القيم في الهدى ٢ ، ٩٢ . وقال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل ، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٧/٣٥٠) .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج[1] ، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا . فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشيخان » استعرض جيشه ، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة بن زيد ، وأسيد بن ظهير ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدري ، وزيد بن حارثة الأنصاري ، وسعد بن حبة ، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حديثه في البخاري يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب على صغر سنهما ، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع . أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه أيضاً .

المبيت بين أحد والمدينة:

وفي هذا المكان أدركهم المساء ، فصلى المغرب ، ثم صلى العشاء ، وبات هنالك ، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة .

تمرد عبدالله بن أبي وأصحابه:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج ، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر ، وكان بمقربة جداً من العدو فقد كان يراهم ويرونه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق ، فانسحب بنحو ثلث العسكر – ثلاثمائة مقاتل – قائلاً : ما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره .

---

(١) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٢/٣٤) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر .

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه ، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد – في ذلك الظرف الدقيق – أن يحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم ، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ ، وتنهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتشجع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان – بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج – أن تفشلا ، ولكن الله تولاهما ، فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣ : ١٢٢) .

وحاول عبد الله بن حرام – والد جابر بن عبد الله – تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق ، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً : أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه .

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : ﴿وَلْيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (٣ : ١٦٧) .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش – وهم سبعمائة مقاتل – ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة ، فقال : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم » ؟

فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله ، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرة بني حارثة وبمزارعهم ، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش في هذا الطريق بحائط مربع بن قيظي – وكان منافقاً ضرير البصر – فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : « لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر » .

ونفذ رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي ، فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة ، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد ، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه ، وهيأهم صفوفاً للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلاً ، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة – وعرف فيما بعد بجبل الرماة – جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي .

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم : « انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك »[1] . ثم قال للرماة:« احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا[2] » ، وفي رواية البخاري أنه قال : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم[3] .

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

---

(١) ابن هشام ٢/٦٥ ، ٦٦ .

(٢) روى ذلك أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح الباري ٧/٣٥٠ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ١/٤٢٦ .

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالآلاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً ، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي ﷺ العسكرية – وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا – فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسرته وظهره – حين يحتدم القتال – بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي ، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمي به – إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين – ولا يلتجيء إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم ، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين ، كما أنه عوض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ .

الرسول ـ ﷺ ـ ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرض أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء ، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه ، حتى جرد سيفاً باتراً ونادى أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام إليه رجال يأخذوه – منهم علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب – حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني » . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل

يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله ﷺ : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

تعبئة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش ، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد – وكان إذ ذاك مشركاً – وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار ، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب – كما أسلفنا في أوائل المقالة – وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك ، تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر ، بيد أن القائد العام – أبا سفيان – ذكرهم بما أصاب قريشاً يومَ بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم ليستفز غضبهم ويثير حميتهم : يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان في هدفه ، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب ، وهموا به وتواعدوه ، وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم .

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم ، فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار رداً عنيفاً ، وأسمعوه ما يكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانت الفئتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض ،

فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق – واسمه عبد عمرو بن صيفي ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق ، وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه – فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فقالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالاً شديداً وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة .

جهود نسوة قريش في التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة في المعركة ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فكن يتجولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفائظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان ، وتدانت الفئتان ، وبدأت مراحل القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتيبة ، خرج وهو راكب على جمل ، يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط

شجاعته ، ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث ، حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكبر وكبر المسلمون ، وأثنى على الزبير ، وقال في حقه : إن لكل نبي حوارياً ، وحواريي الزبير[1] .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن عـــلى أهـــل اللواء حقـــا أن تخضب الصـــعـــدة أو تنـــدقـــا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرته ، فأدلع لسانه ومات لحينه . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز ، فتقدم إليه علي بن أبي طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه علي فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلح بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته ، وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بسهم فقضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حمله من بني عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله علي بن أبي طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان – وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية ، لا عن الإسلام – ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري ، فقتله قزمان أيضاً ، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضاً .

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢/١٨ .

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار – من حملة اللواء – أبيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء ، فتقدم غلام لهم حبشي – اسمه صواب – فحمل اللواء ، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله ، فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه ؛ لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم هل أعذرت ، يعني هل أعذرت ؟[1] .

وبعد أن قتل هذا الغلام – صواب – سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقي ساقطاً .

القتال في بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة ، يدور حول لواء المشركين ، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة ، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود ، وهم يقولون « أمت ، أمت » ، كان ذلك شعاراً لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء ، آخذاً بسيف رسول الله ﷺ ، مصمماً على أداء حقه ، فقاتل حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وأخذ يهدُّ صفوف المشركين هدّاً . قال الزبير بن العوام : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه ، وأعطاه أبا دجانة ، وقلت أي في نفسي : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه ، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركني ، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول[2] أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفَّف عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا

---

(١) كان بلسانه لكنة يقلب الذال إلى الزاي .

(٢) الكيول : اخر الصفوف . يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف . بل يظل أبداً في المقدمة .

ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله[1] .

ثم أمعن أبو دجانة في هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش ، وهو لا يدري بها . قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم[2] .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء ، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين ؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو في مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهاً لوجه في ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام .

مصرع أسد الله حمزة بن عبدالمطلب:

يقول قاتل حمزة وحشي بن حرب : كنت غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس – وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئاً – فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس هدا ما يقوم له شيء ، فوالله إني لأتهيأ له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلي يا ابن مقطعة البظور – وكانت أمه ختانة – قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه[3] .

قال : وهززت حربتي ، حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه ، فوقعت في ثنته – أحشائه – حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوي فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت

(١) ابن هشام ٦٨/٢ ، ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ٦٩/٢ .

(٣) أخطأ رأسه ، يقال عند المبالغة في الإصابة .

حربتي ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت[1] .

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله ، فقد قاتل يومئذ أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن جحش ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلَّ عزائم المشركين ، وفتت في أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل – وهو حنظلة بن أبي عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق ، والذي مضى ذكره قريباً – كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب – وهو على امرأته – انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال ، أخذ يشق الصفوف ، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة ، فقد شد على أبي سفيان ، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت للفصيلة التي عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر ، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك في صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث[2] .

---

(١) ابن هشام ٢/٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، صحيح البخاري ٢/٥٨٣ – أسلم وحشي هذا بعد معركة الطائف ، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان .

(٢) انظر فتح الباري ٧/٣٤٦ .

الهزيمة تنزل بالمشركين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم ، لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها – حتى لم يجترىء أحد منها أن يدنو من لوائها ، الذي سقط بعد مقتل صواب ، فيحمله ليدور حوله القتال – فأخذت في الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم – سوق – هند بن عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير .. إلخ[1] وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح : فلما لقيناهم هربوا ، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن[2] . وتبع المسلمون المشركين ، يضعون فيهم السلاح ، وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر ، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً ، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة ، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة ، لكن على رغم هذه الأوامر

(١) ابن هشام ٢/٧٧ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٧٩ .

المشددة ؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو ، غلبت أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ وقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً ، وقالت : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة[1] . ثم غادر أربعون رجلاً من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل ، والتحقوا بسواد الجيش ، ليشاركوه في جمع الغنائم ، وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه ، التزموا مواقفهم ، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ، فاستدار بسرعة خاطفة ، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد ، فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم – وهي عمرة بنت علقمة الحارثية – فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب ، فالتف حوله المشركون ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضاً ، حتى اجتمعوا على المسلمين ، وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ، ووقعوا بين شقي الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مفرزة صغيرة – تسعة نفر من أصحابه[2] – في مؤخرة المسلمين[3] ، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين ؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو – بالسرعة – بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

---

(١) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب ٤٢٦/١ .

(٢) في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

(٣) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوكم في أخراكم . (٣ : ١٥٣) .

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادي أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق .

وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين في الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهي لا تدري ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران ، فلم يتميزوا ، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض . روى البخاري عن عائشة قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أي عباد اللهأخراكم – أي احترزوا من ورائكم – فرجعت أولاهم ، فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر جذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أي عباد الله أبي أبي . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم ، قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله[1] .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى ، وتاه منها الكثيرون ، لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح : إن محمداً قد قتل . فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية ، أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكيناً ، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبي – رأس المنافقين – ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان .

ومر بهؤلاء أنس بن النضر ، وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم

---

(١) صحيح البخاري ٥٣٩/١ ، ٥٨١/٢ ، وفتح الباري ٣٥١/٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٤٦ .

قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واها لريح الجنة يا سعد ، إني أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته – بعد نهاية المعركة – ببنانه ، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم[1] .

ونادى ثابت بن الدحداح قومه ، فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم ، حتى قتله خالد بالرمح ، وقتل أصحابه[2] .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط في دمه ، فقال : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم[3] .

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبي ، وأخذوا سلاحهم ، يهاجمون تيارات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مختلق ، فزادهم ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا في الإفلات عن التطويق ، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ . فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ ، وعمل التطويق في بدايته ، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة – عليه الصلاة والسلام والتحية – صاروا في مقدمة المدافعين .

---

(١) زاد المعاد ٢/٩٣ ، ٩٦ صحيح البخاري ٢/٥٧٩ .

(٢) السيرة الحلبية ٢/٢٢ .

(٣) زاد المعاد ٢/٩٦ .

احتدام القتال حول رسول الله ـ ﷺ ـ:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شقي رحى المشركين ، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إليَّ ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه ، فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ، ظهرت فيه نوادر الحب والتفاني والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقي في الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه – أي القرشيين – ما أنصفنا أصحابنا[1] .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط[2] .

أحرج ساعة في حياة الرسول ـ ﷺ ـ:

وبعد سقوط بن السكن بقي الرسول ﷺ في القرشيين فقط ، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال : لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبي وقاص)[3] وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه ، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى ، وكلمت شفته السفلى ، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري ، فشجه في

---

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ١٠٧/٢ .

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدنوه من رسول الله ﷺ ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ . (ابن هشام ٨١/٢) .

(٣) صحيح البخاري ٥٢٧/١ ، ٥٨١/٢ .

جبهته . وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة ، شكا لأجلها أكثر من شهر ، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى ، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله[1] .

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته ، وشج في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2] .

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكث ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[3] . وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[4] ، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون[5] .

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة ، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير ، حتى لم يتركا – وهما اثنان فحسب – سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ .

فأما سعد بن أبي وقاص ، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته ، وقال : ارم فداك أبي وأمي[6] . ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد[7] .

---

(١) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة « انصرف إلى أهله ، فخرج إلى غنمه ، فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح الباري ٣٧٣/٧) وعند الطبراني فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح الباري ٣٦٦/٧) .

(٢) صحيح البخاري ٥٨٢/٢ ، وصحيح مسلم ١٠٨/٢ .

(٣) فتح الباري ٣٧٣/٧ .

(٤) صحيح مسلم باب غزوة أحد ١٠٨/٢ .

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٨١/١ .

(٦–٧) صحيح البخاري ٤٠٧/١ ، ٥٨٠/٢ ، ٥٨١ .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار . قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : من للقوم ، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار ، وقتلهم واحداً بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم ، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر : ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حَسٌ ، فقال النبي ﷺ لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين[1] . ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين ، أو خمساً وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أي السبابة والتي تليها[2] .

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد[3] .

وروى الترمذي أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله »[4] .

وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة[5] .

وقال فيه أبو بكر أيضاً :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوأت المها العينا[6]

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففي الصحيحين عن سعد . قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد . وفي رواية يعني جبريل وميكائيل[7] .

---

(١) فتح الباري ٣٦١/٧ ، وسنن النسائي ٥٢/٢ ، ٥٣ .
(٢) نفس المصدر الأول ٣٦١/٧ .
(٣) صحيح البخاري ٥٢٧/١ ، ٥٨١/٢ .
(٤) مشكاة المصابيح ٥٦٦/٢ ، ابن هشام ٨٦/٢ .
(٥) فتح الباري ٣٦١/٧ .
(٦) مختصر تاريخ دمشق ٨٢/٧ (من هامش شرح شذور الذهب ص١١٤) .
(٧) صحيح البخاري ٥٨٠/٢ .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول - ﷺ -:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة . وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تطور الموقف ، أو يسمعون صوته ﷺ ، حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا ، والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماتهم . وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبي ﷺ ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة ، فداك أبي وأمي ، كن طلحة ، فداك أبي وأمي ، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كأنه طير ، حتى لحقني ، فدفعنا إلى النبي ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبي ﷺ : « دونكم أخاكم فقد أوجب » ، وقد رمي النبي ﷺ في وجنته ، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني . قال : فأخذ بفيه ، فجعل ينضضه كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ . ثم استلَّ السهم بفيه ، فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني ، قال فأخذه فجعل ينضضه حتى استله ، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ : « دونكم أخاكم ، فقد أوجب » ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه . وقد أصابته بضع عشرة ضربة[1] . (وهذا أيضاً يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم في الكفاح والنضال) .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين ، منهم أبو دجانة ، ومصعب بن عمير ، وعلي بن أبي طالب ، وسهل بن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري . وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وسهل بن حنيف ، وأبو طلحة .

(١) زاد المعاد ٢/٩٥ .

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم ، وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها ، فجحشت ركبته ، وأخذ علي بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، وقال نافع بن جبير : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً ، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية رسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه في ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع . فخرجنا أربعة . فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك[1] .

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة ، لم يعرف لها التاريخ نظيراً . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو . قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له ، وكان رجلاً رامياً شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل ، فيقول : « انثرها لأبي طلحة » . قال : ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك[2] .

وعنه أيضاً قال : كان أبو طلحة يترس مع النبي ﷺ بترس واحد ، وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ ، فينظر إلى موقع نبله[3] .

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ ، فترس عليه بظهره ، والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك .

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص – الذي كسر الرباعية الشريفة – فضربه

---

(١) زاد المعاد ٢/٩٧ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٨١ .

(٣) نفس المصدر ١/٤٠٦ .

بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه – عتبة هذا – إلا أنه لم يظفر به ، بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله ﷺ على الموت ، ثم قام بدور فعال في ذود المشركين .

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها[1] ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما .

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها في رجله فعرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه . فقال : « مجه » . فقال : والله لا أمجه أبداً . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبي ﷺ : « من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقتل شهيداً » .

وقاتلت أم عمارة ، فاعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين ، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف ، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها ، لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة ، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه ، وكان اللواء بيده ، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وصمد في وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى ، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل ، وكان الذي قتله هو ابن قمئة ، وهو يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح : إن محمداً قد قتل[2] .

إشاعة مقتل النبي ـ ﷺ ـ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين

(١) سيتها : ما عطف من طرفيها .

(٢) انظر ابن هشام ٧٣/٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، وزاد المعاد ٩٧/٢ .

وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول - ﷺ - يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب ، فقاتل قتالاً شديداً ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ، فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن أصمت ؛ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون . إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون ، حتى تجمع حوله حوالي ثلاثين رجلاً من الصحابة .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون في هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة – أحد فرسان المشركين – إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله ﷺ لمواجهته . إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر ، فنازله الحارث بن الصمة ، فضرب على رجله فأقعده ، ثم ذفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر – فارس آخر من فرسان مكة – على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه ، فجرحه حتى حمله المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة – البطل المغامر ذو العصابة الحمراء – على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المرير ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله ، كما تحدث عنه

خريطة غزوة أحد

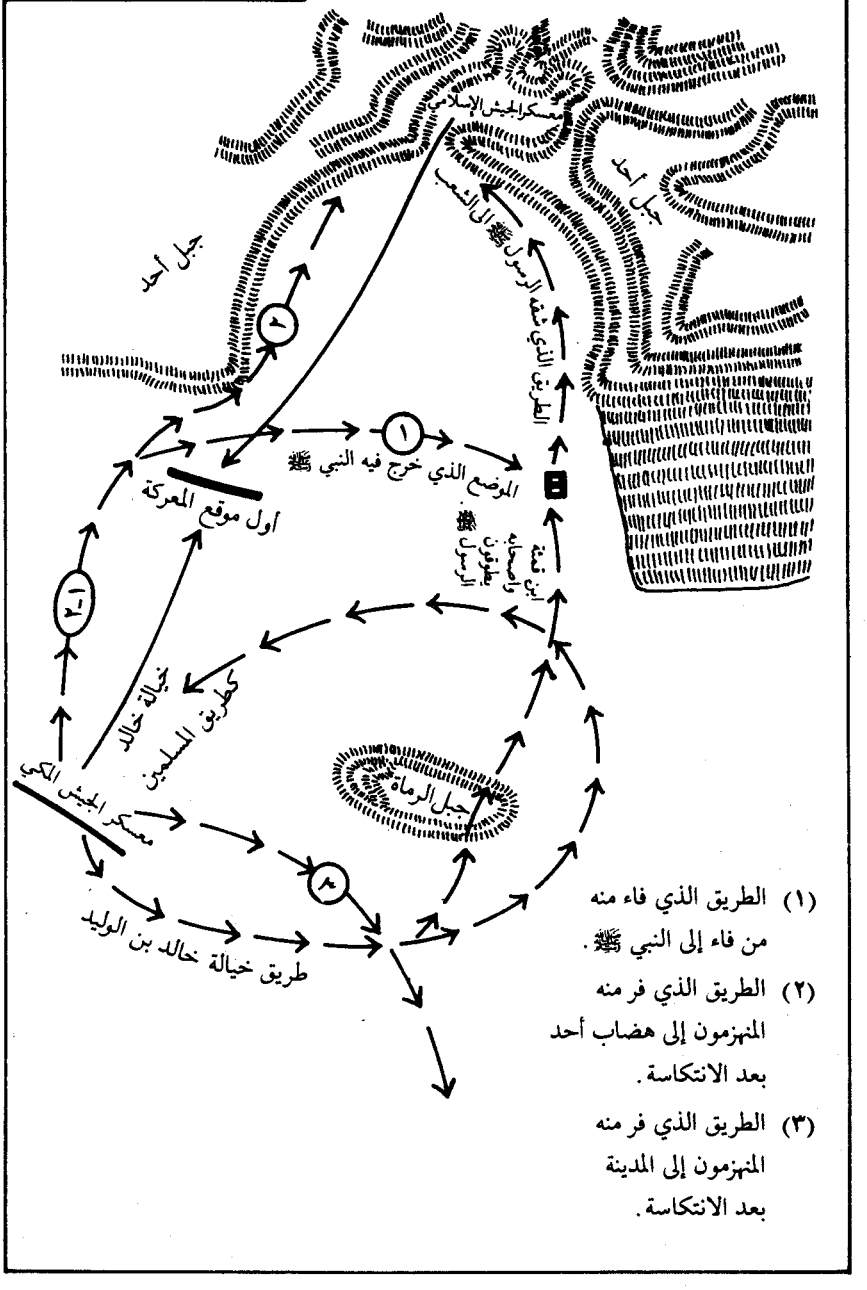

(١) الطريق الذي فاء منه من فاء إلى النبي ﷺ.

(٢) الطريق الذي فر منه المنهزمون إلى هضاب أحد بعد الانتكاسة.

(٣) الطريق الذي فر منه المنهزمون إلى المدينة بعد الانتكاسة.

القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه[1] .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة – في انسحاب منظم – إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون ، فتلاحق به في الجبل ، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ .

مقتل أبي بن خلف:

قال ابن إسحاق : فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوتُ إن نجا ؟. فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعوه . فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها طعنة تدأدأ – تدحرج – منها عن فرسه مراراً ، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلني والله محمد . قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك[2] فوالله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات عدو الله بسرف ، وهم قافلون به إلى مكة[3] ، وفي رواية أبي الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعاً[4] .

طلحة ينهض بالنبي - ﷺ -:

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٨٢ .

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبي هذا ، فيقول : يا محمد إن عندي العود فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذرة ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله ﷺ ، بل أنا أقتلك إن شاء الله .

(٣) ابن هشام ٢/٨٤ ، زاد المعاد ٢/٩٧ .

(٤) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص٢٥٠ .

ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنه كان قد بدّن وظاهر بين الدرعين ، وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها وقال : أوجب طلحة[1] ، أي الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب ؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينا رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل – يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد – فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[2] .

وفي مغازي الأموي أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : أجبنهم – يقول : اردهم – فقال : كيف أجبنهم وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثاً ، فأخذ سعد سهماً من كنانته ، فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته في كنانتي . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه[3] .

تشويه الشهداء:

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئاً – بل كانوا على شبه اليقين من قتله – رجعوا إلى مقرهم ، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة ، واشتغل من اشتغل منهم – وكذا اشتغلت نساؤهم – بقتلى المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ، ويبقرون البطون ، وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة ، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها ، واتخذت من الآذان والأنوف خدماً – خلاخيل – وقلائد[4] .

---

(١) ابن هشام ٢/٨٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) زاد المعاد ٢/٩٥ .

(٤) ابن هشام ٢/٩٠ .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان ، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال ، ومدى استماتتهم في سبيل الله .

١ ـ قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[١] ، وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصري ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة[٢] .

٢ ـ جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وأنهما لمشمرتان ـ أرى خدم سوقهما ـ تنقزان القرب على متونهما ، تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنهما ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم[٣] . وقال عمر : كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد[٤] .

وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلم سيفك . ثم سارعت إلى ساحة القتال ، فأخذت تسقي الجرحى ، فرماها حبان (بالكسر) ابن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته[٥] .

---

(١) أي استجمعوا وانضموا .
(٢) البداية والنهاية ٤/١٧ .
(٣) صحيح البخاري ١/٤٠٣ ، ٢/٥٨١ .
(٤) نفس المصدر ١/٤٠١ .
(٥) السيرة الحلبية ٢/٢٢ .

بعد انتهاء الرسول - ﷺ - إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب ، حتى ملأ درقته ماء من المهراس – قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيراً وقيل : اسم ماء بأحد – فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحاً فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه[1] .

وقال سهل : والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء وبما دووي ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها ، فاستمسك الدم[2] .

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي ﷺ ، ودعا له بخير[3] ، وصلى الظهر قاعداً من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً[4] .

شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه – وكان النبي ﷺ منعهم من الإجابة – ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

ثم قال : اعل هبل .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه ؟ فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

---

(١) ابن هشام ٢/٨٥ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٨٤ .

(٣) السيرة الحلبية ٢/٣٠ .

(٤) ابن هشام ٢/٨٧ .

ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي ﷺ : ألا تجيبونه ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، والحرب سجال .

فأجاب عمر ، وقال : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار .

ثم قال أبو سفيان : هلم إلي يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر[1] .

مواعدة التلاقي في بدر:

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل . فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد[2] .

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة .. وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة[3] .

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت : بعثني رسول

---

(١) ابن هشام ٢/٩٣ ، ٩٤ ، زاد المعاد ٢/٩٤ ، صحيح البخاري ٢/٥٧٩ .

(٢) ابن هشام ٢/٩٤ .

(٣) ابن هشام ٢/٩٤ ، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٧/٣٤٧) .

الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته[1] .

ووجدوا في الجرحى الأصيرم – عمرو بن ثابت – وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذي جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة في الإسلام ؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : هو من أهل الجنة . قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط[2] .

ووجدوا في الجرحى قزمان – وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين – وجدوه قد أثبتته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بني ظفر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله ﷺ يقول : إذا ذكر له ، إنه من أهل النار[3] – وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام ، بل وفي جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالي لمحمد ، يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل ، فقال رسول الله ﷺ : مخيريق خير يهود[4] .

(١) زاد المعاد ٢/٩٦ .
(٢) نفس المصدر ٢/٩٤ ، وابن هشام ٢/٩٠ .
(٣) نفس المصدر الأول ٢/٩٧ ، ٩٨ ، وابن هشام ٢/٨٨ .
(٤) ابن هشام ٢/٨٨ ، ٨٩ .

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء ، فقال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه اللون لون الدم ، والريح ريح المسك[1] .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفنوهم في مضاجعهم ، وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود ، وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد ، ويقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة[2] .

وفقدوا نعش حنظلة ، فتفقدوه ، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء ، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا أهله ما شأنه ؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمي حنظلة : غسيل الملائكة[3] .

ولما رأى ما بحمزة – عمه وأخيه من الرضاعة – اشتد حزنه ، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة ، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها ، لا ترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فأتته ، فنظرت إليه ، فصلت عليه – دعت له – واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش – وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب ، وضعه في القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتحب حتى نشع من البكاء[4] والنشع : الشهيق .

---

(١) نفس المصدر ٢/٩٨ .

(٢) زاد المعاد ٢/٩٨ ، وصحيح البخاري ٢/٥٨٤ .

(٣) زاد المعاد ٢/٩٤ .

(٤) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة رسول الله ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص٢٥٥ .

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر[1] .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وروي مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبي ﷺ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر »[2] .

الرسول - ﷺ - يثني على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استووا حتى أثني على ربي عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم ، الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق[3] .

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعاً إلى

---

(١) رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١/١٤٠ .

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٧٩ ، ٥٨٤ .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، والإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٤ .

المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة .

لقيته في الطريق حمنة بنت جحش ، فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها لبمكان[1] .

ومر بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل – تريد صغيرة[2] .

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو ، وسعد آخذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله أمي ، فقال : مرحباً بها . ووقف لها . فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالماً ، فقد اشتويت المصيبة (أي استقللتها) . ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً ، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلفوا[3] .

الرسول - ﷺ - في المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم – يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ – إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقني اليوم . وناولها علي بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة[4] .

(١) ابن هشام ٢/٩٨ .
(٢) نفس المصدر ٢/٩٩ .
(٣) السيرة الحلبية ٢/٤٧ .
(٤) ابن هشام ٢/١٠٠ .

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً ، واحد وأربعون من الخزرج ، وأربع وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً ، ولكن الإحصاء الدقيق – بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال – يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون . والله أعلم[1] .

حالة الطوارىء في المدينة :

بات المسلمون في المدينة – ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ بعد الرجوع عن معركة أحد – وهم في حالة الطوارىء ، باتوا – وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أي منال – يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ، إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي .

قال أهل المغازي ما حاصله : إن النبي ﷺ نادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو – وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أي يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ – وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك ؟ قال : لا ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد ، وقالوا : سمعاً وطاعة ،

---

(١) انظر ابن هشام ٢/١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، فتح الباري ٧/٣٥١ ، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

واستـأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسـول الله ، إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته ، فأذن لي ، أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك .

وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم – ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينـا ما أصـابك في أصحـابك ، ولوددنا أن الله عافاك – فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذله .

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبـدو أن هذا الرأي جـاء سـطحيـاً ممن لم يكن يقدر قوة الفريقـين ومعنوياتهم تقديراً صحيحـاً ، ولذلك خالفهـم زعيم مسئول « صفوان بن أميـة » قائلا : يا قوم ، لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج – أي من المسـلمين في غزوة أحد – فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأي رفض أمام رأي الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبي معبد الخزاعي ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد – وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة – : محمد ، قد خرج في أصحابه ، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل – أو – حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة .

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإني ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي ، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي ، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينجح في الاجتناب عن لقائه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة ، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمداً أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد ، فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم – أي زاد المسلمين قولهم ذلك – إيماناً ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد – مقدمه يوم الأحد – الإثنين والثلاثاء والأربعاء – ٩/١٠/١١ شوال سنة ٣هـ – ثم رجع إلى المدينة . وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحي – وهو الذي كان قد منَّ عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته ، على أن لا يظاهر عليه أحداً ، ولكنه نكث وغدر ، فحرض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم في أحد – فلما أخذه رسول الله ﷺ قال : يا محمد أقلني ، وامنن علي ، ودعني لبناتي ، وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال ﷺ : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ ، فأمنه على أنه إن وجد بعد

ثلاث قتله ، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هارباً ، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه[1] .

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هي جزء من غزوة أحد وتتمة لها ، وصفحة من صفحاتها .

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة ، هل كانت هزيمة أم لا ؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفدح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعاً ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي ، لكن هناك أموراً تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين ، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجىء إلى الفرار – مع الارتباك الشديد والفوضى العامة – بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي ، وأن أحداً من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوماً أو يومين أو ثلاثة أيام – كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان – بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال ، قبل أن يتركها المسلمون ، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال ، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماماً .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة ، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي

---

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢/٦٠ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٢/٩١ إلى ١٠٨ ، وفتح الباري ٧/٣٤٥ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخاري ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي من ص٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أحلنا على المصادر الأخرى في مواضعها .

بعد عمل التطويق – وكثيراً ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون – أما أن ذلك كان نصراً وفتحاً فكلا وحاشا .

· بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف ؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكداً حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حمراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حرباً غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، و هذا هو معنى الحرب غير المنفصلة .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾(٤ : ١٠٤) فقد شبه أحد العسكرين بالآخر في وإيقاع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

ونزل القرآن يلقي ضوءاً على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ، ويدلي بتعليقات تصرح بالأسباب التي أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم في مثل هذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة ، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله ، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين ، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود – أصحاب الدس والمؤامرة – وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدىء بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (٣ : ١٢١) وتترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ

عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣ :١٧٩) .

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاما [١] . وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهي ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة ، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً ، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس ، وكسراً لشماختها ، فلما ابتلي المؤمنون صبروا ، وجزع المنافقون . ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها . ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم . ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين[١] .

---

(١) انظر زاد المعاد ٢/٩٩ إلى ١٠٨ .

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين ، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس ، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين ، بل طمعت في أن تقضي عليهم ، وتستأصل شأفتهم .

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة ، ثم قامت قبائل عضل وقارة في شهر صفر سنة ٤هـ بمكيدة ، سببت في قتل عشرة من الصحابة ، وفي نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيدة مثلها ، سببت في قتل سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة ، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبي ﷺ ، وتجرأت بنو غطفان ، حتى همت بالغزو على المدينة في جمادي الأولى سنة ٤هـ .

فريح المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين – إلى حين – يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد ، وأول ماأقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها مقداراً كبيراً من سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين في الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم ، بل زادت فيها ، وفي الصفحة الآتية شيء من تفاصيلها :

سرية أبي سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة ، فقد نقلت استخبارات

المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ .

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا في الأمر ، وأصاب المسلمون إبلاً وشاءً لهم ، فاستاقوها ، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات[1] .

بعث عبدالله بن أنيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر – المحرم سنة ٤هـ – نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضي عليه .

وظل عبد الله بن أنيس غائباً عن المدينة ثماني عشرة ليلة ،ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم ، وقد قتل خالداً وجاء برأسه ، فوضعه بين يدي النبي ﷺ ، فأعطاه عصا ، وقال : « هذه آية بيني وبينك يوم القيامة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه في أكفانه »[2] .

بعث الرجيع:

وفي شهر صفر من نفس السنة – أي الرابعة من الهجرة – قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاماً . وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر – في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة – وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي – في قول ابن إسحاق وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب – فذهبوا معهم ،فلما كانوا بالرجيع – وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز

---

(١) زاد المعاد ٢/١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ٢/١٠٩ ، وابن هشام ٢/٦١٩ ، ٦٢٠ .

بين رابغ وجدة – استصرخوا عليهم حياً من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم بقرب من مائة رام ، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم – وكانوا قد لجأوا إلى فدفد – وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً . فأما عاصم فأبى من النزول ، وقاتلهم في أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم ، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر ، فأما خبيب فمكث عندهم مسجوناً ، ثم أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أزمعوا على صلبه قال : دعوني حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا : إن ما بي جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي ... فقد بضعوا لحمي وقد بؤس مطعمي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ... فقد ذرفت عيناي من غير مدمع
ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمداً عندنا نضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ فقال : لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه .

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمري ، فاحتمله بخدعة ليلاً ، فذهب به فدفنه ، وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه حارثاً يوم بدر .

وفي الصحيح أن خبيباً أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رئي وهو أسير يأكل قطفاً من العنب ، وما بمكة تمرة .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه – وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر – فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر – الزنابير – فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شيء . وكان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركاً ، وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته[1] .

مأساة بئر معونة:

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بملاعب الأسنة) قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؛ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : « إني أخاف عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلاً – في قول ابن إسحاق ، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذي في الصحيح هو الصحيح – وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمعتق ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحتطبون بالنهار ، يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة – وهي أرض بين بني عامر وحرة وبني سليم – فنزلوا هناك ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء ، فاستنفر بني سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين ، فرأيا الطير تحوم

(١) ابن هشام ١٦٩/٢ إلى ١٧٩ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، صحيح البخاري ٥٦٨/٢ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥ .

على موضع الوقعة ، فنزل المنذر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمري ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا في غدرة شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة ، نزل في ظل شجرة وجاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود[1] ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير كما سيذكر .

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[2] تألماً شديداً ، وتغلب عليه الحزن والقلق[3] ، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه ، ففي الصحيح عن أنس قال : دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً ، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : « عصية عصت الله ورسوله » ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » فترك رسول الله ﷺ قنوته[4] .

غزوة بني النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب ، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة ، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعاً من الحيل ، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين

(١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ .

(٢) ذكر الواقدي أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة .

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٢٦٠ » .

(٤) البخاري ٥٨٦/٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

المسلمين من عهودٍ ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع ، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم ، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سراً ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[1] .

وصبر النبي ﷺ ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة ، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ .

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري – وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة – فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك . فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظرون وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم ، فتآمروا بقتله ﷺ ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى ، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ ... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به ، فنهض مسرعاً ، وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما همت به يهود .

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصاً من الخروج ، فأقاموا أياماً يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين – عبد الله بن أبي – بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا ، ولا تخرجوا من دياركم ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما

---

(١) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ٣/١١٦ ، ١١٧ « عون المعبود شرح سنن أبي داود » .

قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

ولا شك أن الموقف كان حرجاً بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأيت كَلَبَ العرب عليهم ، وفتكهم الشنيع ببعوثهم ، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالمكاره ، إلا أن الحال التي جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفراداً ، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير – بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ – مهما تكن النتائج ..

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيي بن أخطب كبر وكبر أصحابه ، ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم ، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عوناً لهم في ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفي ذلك يقول حسان :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

البويرة : اسم لنخل بني النضير ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (٥٩ : ٥) .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً ، أو يدفع عنهم شراً ، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ (٥٩ : ١٦) .

ولم يطل الحصار – فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة – حتى قذف الله في قلوبهم الرعب ، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ : نحن نخرج عن المدينة ، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

فنزلوا على ذلك ، وخربوا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشبابيك ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير ، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً .

وكانت أموال بني النضير وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة ، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما ، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٢٥م وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفيء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض ، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير[1] .

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون – في غزوة بني النضير – دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن الرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران[2] ، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة .

---

(١) ابن هشام ٢/١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٢/٧١ ، ١١٠ ، صحيح البخاري ٢/٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٢) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة ص٢١٤ .

فقبل أن يقوم النبي ﷺ بتأديب أولئك الغادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافي نجد ، ويلقي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة ؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال . وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازي والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون في أرض نجد في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى سنة ٤هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه . وهذا الذي كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التي كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب ، وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم ، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب – لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعاً ، بل كان لا بد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التي كانوا يتوقعون وقوعها في رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التي قادها الرسول ﷺ في ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤هـ هي غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما . وكان إسلام أبي هريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وافى النبي ﷺ بخيبر . وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبي ﷺ صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف في غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكفكفوا شرهم ، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش – في غزوة أحد – وحق

لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى ، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء[1] .

ففي شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م ، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر ،فأقام بها ينتظر المشركين .

وأما أبو سفيان ، فخرج في ألفين من مشركي مكة ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة – ماء في تلك الناحية .

خرج أبو سفيان ، من مكة متثاقلاً ، يفكر في عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه ، فاحتال للرجوع ، وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا .

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أي مصادمة لهذا الرأي وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم في النفوس وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى[2] .

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

---

(١) كلمة محمد الغزالي في فقه السيرة ٣١٥ .

(٢) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٩/٢ ، ٢١٠ ، زاد المعاد ١١٢/٢ .

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل – قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ ، وأخذ رجلاً من بني عذرة دليلاً للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار ؛ حتى يفاجيء أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا في كل وجه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً ، وأقام رسول الله ﷺ أياماً ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع في تلك الغزوة عيينة بن حصن ، ودُومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام ، بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن ، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالت عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وبإيفاء العهود والمواثيق ، واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .